

التصور اللغوي في البلاغة القديمة

د. رمضان كره

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية

جامعة - تلمسان -

الملخص

يحاول هذا البحث تبين التصور اللغوي في الموروث البلاغي، و كيف تم توظيف اللغة لإحراز المنافع الخاصة و تحقيق النجاح و الصلة بين الجمهور وإيهامه بمعجم الدعاية، كما يشير إلى حرص بعض البلاغيين على الزخرف اللفظي، و حسن الإفهام و سهولة الإخراج والكلام المؤثر و الحجاج المقنع. و يقف البحث عند تأثير الثقافة في اللغة، الأمر الذي أدى إلى التثبيت بمبدأ الثبات و الاستقرار و تقييد الدلالة في اللغة العربية. واستبعاد مبدأ التطور اللغوي. و يصل إلى أن اللغة في هذا الموقف البلاغي لم تستعمل كفن خالص، و بعبارة أخرى، لم تستعمل اللغة لخدمة ذات اللغة، أي توسيع اللغة أو تعميقها أو إعطائها جانبا من الحيوية و الحرية و التلقائية.

تتميز الأمة العربية بخصوصيات عديدة من بينها لغتها التي درج الباحثون على الانتباه إليها، فالعربي شديد التأثير بالألفاظ و موسيقاها و معانيها، يشده الكلام شدا حتى كانت فنون الشعر و الخطابة من نشاطاته البارزة، و حتى أصبح التميز فيها أمرا يأتي صاحبها بحظ حسن، و كثيرا ما حقق لصاحبه حضوة و مكانة في أكثر من مجال، كأن يأتيه بالجاه أو المال أو العطف أو الصفح، فخليفة المسلمين يمكن أن يسامحه عن إثم أو جريرة، و الآخر قد يهبه ما يريد، و يعود ذلك كله إلى سحر الكلمة و عذوبتها، فالكلمة تحمل معنى صادقا دقيقا يتأكد برود فعل صاحبها، حيث تقترن بذاته اقترانا يجعله شديد التأثير بالبيان الساحر.

و الواقع أن العربي ما يزال إلى اليوم يتفاعل مع مفردات لغته التي تمس مشاعره وأحاسيسه و طاقاته و جذوره و امتداده ضمن واقعه القومي و الاجتماعي . و لعل هذا ما أدى بالدارسين إلى البحث في طبيعة اللغة و وظيفتها و دلالاتها، و لاسيما في مجال البلاغة. ذلك لأن البلاغة هي نظام الخبرة باللغة و جمال الكلام . و قد كان الشعر أهم عنصر في بنية ثقافة المجتمع العربي و غمط التعبير الذي شغلهم عن التفكير في أنماط أخرى، يقول ابن سلام الجهمي: "علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه" (1). إن هذه العناية بالشعر جعلت العربي ينشأ على تذوق الأسلوب و نقده ، و الفطنة بجيده و رديئة، و نشأ عن ذلك ظهور آراء نقدية، كانت هي الأساس الأول للنقد الأدبي عند العرب، و كان هذا النقد هو أساس علم البلاغة العربية. و بتعبير أدق، كانت بذور البحث البلاغي منبثة في تلك المناظرات الشعرية القديمة في أسواق العرب، حيث كانت ملاحظات الحكم تتناول اللفظة و العبارة (2) .

فالبلاغة إذن، هي أصل من أصول الفن، لأننا لا ننشد غير الجمال الأدبي، و الجمال الأدبي لا يكون إلا في التعبير، و التعبير موضوع البلاغة و لا جدال (3) .

و تعتبر البلاغة بصفة عامة، حسن الكلام و جودته و جماله، لا لما فيه من ألفاظ جميلة فصيحة، بل لما يحمله أيضا في طياته من معان إنسانية قيمة و أفكار صحيحة و انفعالات صادقة و صور خلابة، و هي تهدف بعلومها إلى تراكيب الكلام و أساليبه، لتبين لنا خصائص كل تركيب و مجرى كل أسلوب، فالبلاغي يمعن النظر في التركيب من حيث التقديم و التأخير و الحذف و القصر و التشبيه و المجاز، و ما قد يكون بينها من فوارق في المعنى بالزيادة و النقصان أو التثبث و البرهان. و جملة الأمر إن البلاغة تقتصر على نظم الكلام، كما في علم المعاني، و صور البيان كما في علم البيان، و المحسنات البديعية أو وجوه التحسين اللفظي للكلام كما في علم البديع، و غرضها بلوغ المعنى، أي الوصول إليه بدقة و وضوح عن طريق صالح من الألفاظ الجميلة و حسن الأداء. و هي تتناول أمرين : الشكل اللفظي من جهة، و دقة المعنى و صوابه و وضوحه من جهة ثانية .

و لا بأس أن نسجل هنا قبل الخوض في قراءة الموروث البلاغي و النقدي السابق من أجل تحديد جملة من التصورات التي تمثل المفاهيم الأساس للتصور اللغوي، من أن اللغة تتبع التطور الاجتماعي الذي تصيبه الأمة، ذلك التطور الذي يحدث لعوامل كثيرة، أهمها التغير الاجتماعي، و ما يتبعه من تطور في القيم، و منه أمكن القول ، إن البلاغة جزء أساسي من حياة المجتمع القديم و الحديث . فهي أداة الترويح و الأخذ و العطاء و السياسة و أمور الحكم، و الديمقراطية الحديثة لا تقل اعتمادا عليها عن الأنظمة الأخرى، فنظام المعارضة الحزبية ما يزال وثيق الصلة بالبلاغة، وخلق بنا أن نتأمل أدوات الديمقراطية مثل الصحف، لنعرف الفروق بين أشياء متباعدة متشابهة، فهناك سعي دائم لاكتساب عقول الأفراد والجماعات و التأثير عليها . نريد القول من وراء هذا، إن ظروف الحياة السياسية التي استحوذت بين وقت و آخر إلى شر بعد الفتنة الكبرى، و أن قيادة الجمهور كما يقال الآن، خلقت هذا الفن الذي عرف باسم البلاغة، و كان وجود هذا الفن و نموه دليلا على أن مطالب أجزاء من المجتمع لا تعدو أن تكون امتلاك السامع، دون أن يسأل المتكلم نفسه، أكان محقا أم كان مبطلا (4) .

و النقطة الهامة التي نريد إبرازها هنا، لقد كان من البواعث المهمة التي نشأت في كنفها البلاغة، هي ظروف مجتمع يتعرض للتغيير و يواجه التحدي من الخارج، و يحار فيما يأخذ و فيما يدع، و يلاحظ اختلاف مادة التفكير بين قديم و موروث، و طارئ و وافد عليه (5) .

و من دون شك، أن اللغويين قد أسهموا في نشأة البلاغة، حيث نجدهم في العصر العباسي يذكرون بعض الملاحظات البلاغية في إشاراتهم إلى النصوص القرآنية أو الشعرية أو النثرية، كما فعل الفراء في كتابه " تأويل مشكل القرآن " و في كتابه " الشعر و الشعراء "، يتحدث عن معاني البلاغة و مشكلة اللفظ و المعنى و يقارن بين الاستعارة و المجاز. ثم استمرت الحياة العقلية و الأدبية تأخذ طريق النمو إلى أن ازدهر الفكر الأدبي، فوجد اللغويون و النحاة الطريق الذي يسمح لهم في عرض مادتهم لظهور بعض الخصائص الفنية التي تتضح

في نصوصهم التي يستشهدون بها، ثم كان للمتكلمين الخوض في جدلهم الفكري ، فاستعانوا بالصياغة الفنية من أجل الجدال و ردّ الخصوم، و هذا ما جعلهم يعيدون النظر في التراث العربي، و ما به من ملاحظ بلاغية تعينهم في جدلهم (6) . و موجز القول، أن ضروب الجمال المعجز التي نزل النص القرآني عارضا لها و لافتا إليها هي التي أدت إلى ظهور الجمال اللغوي و النظر فيه، كما فعل عبد القاهر الجرجاني حين درس البلاغة على أنها فن القول، و أقام درسه لها على أساس من الدلالة و تطورها و النقل والصورة.

و ندرك من هذه الاعتبارات أن للثقافة السائدة آنذاك علاقات و تدخلات في وظائف البلاغة، و بالتالي فليس من المستطاع بحث فكرة البلاغة بحثا عميقا بمعزل عما كان بينها وبين الثقافة من خصومة (7) فمن المؤكد أن كلمة بلاغة نشأت مرتبطة ارتباطا وثيقا بفكرة المقاصد، أي أن البلاغة مدارها تحقيق الأهداف، إما أن تكون عملية أو شعرية أو خطابية أو ثقافية عامة أو دعاية (8). و بمعنى آخر، فإن البلاغة العربية منذ نشأتها تحاول أن تقف موقفا خاصا، و يتضح هذا الموقف في اختيار الكلمات و ترتيبها، و تسعى إلى الاهتمام بالسامع بما يشبه العمد و الإصغاء (9) و من ثم فإن مقاصدنا يجب أن تفترض، و يجب أن يقدر مدخلها في تلوين أفكارنا و مواقفنا من المخاطبين أيضا (10) .

و الواقع أننا نتكلم في العادة من أجل أن نبلغ هدفا، هذا الهدف يؤثر لا محالة في القول الذي نقول، و من هنا نجد الكاتب يلفت إلى هدفه بالعبارات الإحتراسية والاعتراضات، والحقيقة أن أهدافنا توجه خطة عقولنا (11). و ذلك يدل على أن البلاغة القديمة قد وجهت توجيهات نفعية بعيدة عن مراميها العلمية الأصلية التي كان عليها أن تخلص التوجه نحوها، فأراد بها البعض خدمة غرضه لا غرضها، و سماها المتفعون بها على حسب ما يودون لنفعهم، لذا نجدها تهدف بالدرجة الأولى إلى كسب تأييد المتلقي في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثم إقناع ذلك المتلقي عن طريق إشباع مشاعره و فكره معا، حتى يتقبل و يوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطاب.

و يبدو أن البلاغة بخصائصها توجه للقلب و العقل معا، إذ يجمع القول فيها بين المضمون العقلي للشاهد و صورته البيانية، أو بين التبرير العقلي و المحسنات البيانية، فلا بد من الإغراء و الإستغواء قصد الامتاع و الإقناع (12).

و بموجب هذا، اعتنت البلاغة القديمة بحالة المخاطب اعتناء بالغاً، فتحدث العلماء عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال حديثاً مفصلاً، و قد أدت هذه العناية الشديدة إلى افتراض بعض الباحثين بأن البلاغة القديمة تفترض أن الإنسان لا يفكر لوجه التفكير، و لا يشعر لوجه الشعور، وإنما يشعر و يفكر من أجل التأثير في مخاطب أو التغلب عليه (13).

إن هذا المعنى أوجزه مصطفى ناصف بقوله : إن ثقافتنا التقليدية لم تكن تحسن التمييز بين الجميل من ناحية، و الصواب و الخير من ناحية، و لهذا كانت اللغة في أيدي البلاغة القديمة تخدم مقاصد معينة مختلطة (14) . يؤكد هذا إدعاء الثائرين بأن البلاغة العربية الموروثة لا تهتم بروح الإنسان و متعته المتسامية على النجاح و جني النفع (15) .

و مما يحسن ذكره في هذا الصدد، هو أن الشعر لا يقصد به مخاطباً، وإنما هو انبثاق نفسي في صورة لفظية لحالة شعورية، تتجسد في هذا التعبير الفني معبراً عن صاحبه، وبتعبير ثان، ليس الشعر في جوهره، إفادة المخاطب بمضمون معين، بقدر ما هو تنفيس تلقائي لمشاعر نفسية حبيسة تجد انطلاقتها في هذا العالم السحري الغامض (16).

و مهما يكن، فإن هناك من يرى أن نظام البلاغة القديمة هو نظام إدراك المنافع و دفع المضار، و إحراز النجاح العملي، و هذا كله مبعده من البحث الموضوعي، و معنى هذا الموقف، الدعوة إلى البحث عن السرور المتميز من الغايات العملية و المنفعة (التجربة لذات التجربة) ذلك لأنه يتحدث هنا عن تلك اللغة الراقية التي تمثل أعلى مراحل التطور الفكري عند الإنسان، و بتعبير آخر، لغة أدب، ارتفع عن مستوى الحاجة الاجتماعية الأولى، و عندها يصبح مدار البلاغة هو يقظة روح القارئ الوجدانية و التماس الجمال (17).

هكذا يتجلى، أن المعول عليه في البلاغة هو الصياغة اللغوية و قدرتها على الإيهام والتخييل إلى درجة الإقناع، و بلغة ثانية، المهارة اللغوية التي تمتلك القلوب و تستأثر بها، غير

أنا نجد من نظر إلى نماذج المهارة اللغوية نظرة الريب، فالجاحظ يذكر أن البلاغة هي تصوير الحق في صورة الباطل، و الباطل في صورة الحق(18). وهذا مؤداه مغالطة المتلقي و مخادعته و استدراجه في غيبة من رويته إلى ما يخالف عقله و علمه. و الواقع أن سحر الألفاظ و جمالها يخدم مبادئ متعارضة، فهو يؤيد الدعاية والاستمالة البعيدة، و معنى سحر الألفاظ هو تأثير اللغة الجميلة في النفس، و أن لفظ السحر يعني إغراء الكلام أو القدرة غير العادية على أن يصرفك إليه دون أن يكون لذلك سبب واضح أو حجة مقنعة .

وعلى هذا، ينبغي التمييز بين نوعين من اللغة أحدهما صادق حقيقي، و الثاني خلاب و مستحب، و قد يجتمع هذان النمطان في قول واحد، و قد يفترقان و ربما لا يكون للحق ميزات ظاهرة، و ربما يجتمع للباطل أوجه استحسان باهرة و حسن البيان يرى الظلماء كالنور(19) و في قول الشاعر :

في زخرف القول تزيين لباطله و الحق قد يعتريه سوء تدبير

و مما يفيد في هذا السياق، ما جاء على لسان الرسول عليه الصلاة و السلام " إن من البيان لسحرا" فهذا القول جمع بين عدة اعتبارات : بين محبة القول و الرغبة في الاستماع إليه من ناحية، و التعوذ من البيان الساحر، إذا ملك عقل الإنسان و نفسه و وجه الشبه بين السحر و الشعر هو التأثير(20).

وهناك إشارة من القرآن الكريم، تدل على المفارقة بين القول الذي يغري الإنسان بالاستماع إليه و الحق البريء من الزينة. و القرآن الكريم يشير مرة أخرى بقوله : " و من الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا" (21). وفي سياق آخر يقول : " و إن يقولوا تسمع لقولهم" (22). ففي هذين المقامين ندرك ما يسمى ب " الاستمالة " و قد نظر إليها القرآن نظرة تحذير إذا كانت استمالة غير مشروعة.

ومعلوم أن الإنسان كان - يوما - يرى أن كلمة تحرك الريح أو تغير طبائع الإنسان و تنقله من طور إلى طور، و تتزل القمر من السماء، و كيفما كان الأمر، يبقى القول، إن الأفكار في المجال الإنساني يحكمها اعتبار انفعالي و موقف من الآخرين، و إن كان هذا لا

يمحو صفتها العامة من حيث هي صنف من الأفكار (23) و الملاحظ بوجه خاص، أن ثقافتنا الفعلية في البلاغة القديمة، هي التأثير و رياضة المعاندة و الاستهواء و الكسب (24).

و الخلاصة، إن بلاغة التأثير و الإقناع و التخييل، لم تكن العبارة فيها تستعمل من أجل البيان أو الإشارة المحايدة، و بالمقابل نجد البلاغة الحديثة هي بلاغة التأمل الحر أو الاستعمال الحر للكلمات (25).

هكذا نظر البعض إلى نماذج المهارة اللغوية مشيرا إلى فتنة الزينة أ و جمال اللفظ مع فساد المعنى، و لعل هذا ما جعل العقاد يحاول توثيق العلاقة بين مفهومي الجمال و الحرية، غير أنه ينبغي أن نتذكر قول ابن المقفع: " إن رضا الناس غاية لا تدرك " فقد يكون هذا كلام يصلح لكل زمان، و لكنه في النطاق التاريخي يعبر عن اتساع نطاق الخصومة و كيفية معالجتها في العظة و الشعر و الخطابة و السياسة، مما يدل على أن البحث عن التفاهم السطحي أصبح غاية بحث اللغويين تحت اسم البلاغة (26).

و يتبين من هذا أن الغرض العاطفي كان محورا في الموروث البلاغي، حيث يهدف الشاعر أو الخطيب إلى إقناع الجمهور، و ذلك بأن يكون هدف الإقناع خارج النص، (فعل شيء ما) ثم هناك مقصدية التهيج، و هي تكمن في البحث عن الانفعالات العنيفة (الحقد، الألم، و الخوف) التي تسيطر على الجمهور، و تؤدي إلى تهيج وقتي أو انفجار عاطفي (27).

و بإمكاننا أن نستدل - اليوم - على ذلك، بما حدث من طرف بعض الحركات الدينية، فقد جعل بعض الناس من الديانات محاولة مادية، يريدون من ورائها الاستعلاء و جمع الثروة و العلو في الأرض، و تم لهم ذلك عن طريق تقديم أفكار مشوهة في أثواب زاهية من الألفاظ بقوة غير عادية، محاولين من خلالها استمالة الجمهور الذي يجد في نفسه هوى و لا يعرف للقصد سبيلا. و لكن فتنة البلاغة و سحر الألفاظ ساقدة إلى حيث يشاؤون .

و واضح أن الحياة البشرية كلها إنما تنهض على فهمنا لنفوس الغير ، و تذليل تلك النفوس . و في هذا شر خطير إذا أفلت من رقبة الضمير .

في هذا الإطار، قال ابن خلدون : "لقد عبر العرب بالشعر عن مختلف العواطف والأحاسيس التي تخالجهم، فقد كانوا عن طريقه يؤثرون في غيرهم و يحملونهم على الحماس، و يغرسون فيهم أخلاقهم، و يدلونهم على حسن الشيم" (28) .

و يعني هذا بكل بساطة، أن تعليم المستمع في مجال الأخلاق، كان من أغراض البلاغة القديمة، وطبعي أن يتضمن ذلك عناصر تعليمية و احتجاجية، كما يتضمن دعوة إلى العقل و تسجيل عناصر النصح و الإرشاد. فالتأثير و الاستمالة يتطلبان الإبانة و الوضوح و أساليب الإقناع، و هذا ما يشير إليه قول الجاحظ: "إن مدار العلم على الشاهد و المثل" (29). هكذا حصرت بعض التعاريف وظيفة البلاغة في مؤدى الكلمة اللغوي في الإبانة والإفصاح و البيان، و يرتبط موضوعها بالحكمة طريقا إلى زكاة النفس و تربيتها و تأديتها، مما يبرز الطابع النفعي المنتظر من كل خطاب بليغ، بعيدا عن كل تصور فني و تأثير شعري (30).

فالتراث البلاغي إذن، لا يهتم بحقائق الأشياء، و لكنه يهتم بالتأثير و الإقناع و ضم الجمهور إلى جانب دون آخر . فبالبلاغة يتمكن المعنى لديك، و يحجب إليك، و تحس بنبله، ويتوفر له أنسك، و هذا دليل على أسرار التأثير التي تقع في النفس من جراء صور البيان، فهي تداعب و تناجي و تحاور مشاعر المستمع و أحاسيسه و آماله و طموحاته، ولكي يسهل التأثير في نفسه. و المعول عليه في ذلك كله، هو الصياغة اللغوية و قدرتها على الإيهام و التخييل إلى درجة الإقناع، وعلى هذا الأساس " افترضت البلاغة القديمة أن لدى القائل شيئا محدودا معروفا، يريد أن يؤديه أو ينقله إلى السامع، و عليه أن يختار طريقة الأداء و أن يزيل العقبات التي تنشأ في سبيل عقد الصلة بينه و بين المخاطب، أي العناية بما نسميه الإقناع والتأثير " (31). و لقد سبق أن قلنا، إن البلاغة العربية القديمة، اتصفت بوجوه من الخداع والرياء المقبول و غير المقبول، و لذلك قال الجاحظ : " اللهم إننا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، و نعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن " (32) .

و المقصود من وراء هذا، هو الافتتان بالقول إلى الحد الذي يفقد الإنسان معه صوابه، فيعجز غندئذ عن التمييز بين خيره و شره، و جيده و رديئه، و لهذا إذا وقفنا عند قدرة الحجاج البيانية، نجد الناس يتناقدون قسوته و عنفه و حزمه في معالجة الأمور، فقد قال مالك بن دينار : " ربما سمعت الحجاج يخطب و يذكر ما صنع به أهل العراق، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه، و انه صادق لبيانه و حسن تخلصه بالحجاج " (33).

و مغزى هذا التأثير هو أن المستمع يواجه نشاطا مؤقتا لا يصمد صمودا تاما أمام لغة مزهية بريئة، و المهم أن القدرة على تصريف القول و المعرفة الدقيقة بمفارقات الألفاظ ، إذا حرم منها الشاعر أو الخطيب فقد سلاحا لا يمكن أن يغني عنه سلاح آخر للنجاح . و من هذه الناحية قال Potter : " إن المعرفة قدرة و لكن القدرة على اختيار الكلمات التي تؤدي بها هذه المعرفة أقوى و أعظم، سواء أكانت هذه الكلمات أريد بها الإمتاع أم الإخبار أم الإثارة " (34).

و هاهنا تبرز نقطة ذات أهمية خاصة، هي أن المقاصد ذات شأن كبير في البلاغة الموروثة، إنها تسود غيرها من الوظائف اللغوية، أو تصرفها حسبما شاءت (35) فالوظيفة الإفهامية من اللغة، و الوظيفة الخطابية، و الوظيفة الشعرية، غايتها هي التأثير في السامع وإقناعه.

فالمهة الأساسية للبلاغة القديمة هي وصف الطرق الخاصة في استعمال اللغة و تصنيف الأساليب بحسب تمكنها في التعبير عن الغرض يتجاوز الإبداع إلى التأثير في السامع أو إقناعه بما نقول أو بإشراكه فيما نحس به، و غايتها مد المستعمل بما تعتبره أنجع طريقة في بلوغ المقاصد (36). و يحسن بنا - هنا - أن نتذكر أن اللغة في بدايتها وظيفة اجتماعية، يمارسها الإنسان ليؤكد بها ذاته، و ليستشعر عن طريقها وجوده متفاعلا مع غيره ممن يشاركه هذه الوظيفة (37). وعلى العموم، إن للغة وظيفتين جوهريتين هما : التعبير و التوصيل، إلا أن المقاصد ذات شأن كبير في السترات البلاغي، و كيفما كان الأمر، فقد كانت اللغة في

هذا الإطار تستعمل لغايات أخرى، مثل التشريع، أو خدمة أغراض علم الكلام، أو إذكاء العصبية، أو التحمل الواجب لكل من يتصدى لمنصب من مناصب الحكم أو الرياسة (38) .

انطلاقاً من هذا، انطبعت محاولة الجاحظ بطابع نقعي واضح، يمكن أن يعد بدون مبالغة أكمل محاولة في التراث اللغوي العربي لتأسيس ما يسمى بـ"بنفعية الخطاب" **La pragmatique du discours** فمما يلاحظ أنه من أبرز مقومات طريقته في تناول الخطاب اللغوي، أنه يتناوله من زاوية كونه عملية تواصل "Communication" وهذه العملية تستوجب حداً أدنى من الأطراف لا يقل عن ثلاثة : المتكلم و السامع والكلام، و الرابط بين الأطراف هي الوظائف الثلاثة : الوظيفة الإفهامية، و الوظيفة الخطابية، و الوظيفة الشعرية، غير أن الأولى تقوم من القيمة مقام الأصل، إذ لا يتصور الجاحظ خطاباً لغوياً مهماً كان مستواه، لا يكون الفهم و الإفهام قاعدته، و غاية هذه الوظائف جميعاً هي السامع (39) .

لقد كان تصور الجاحظ الجمالي على هذا النحو، و بالتالي كان الجمال عنده ينبع من النافع، و استقى جانباً من دستور الأخلاقي فالخير ليس في الكلمة الجميلة، بقدر ما هو في الكلمة الناجعة التي تعمل في النفس عمل الغيث في التراب كما يقول (40) .

و ينبغي أن نتذكر أن الجاحظ من كبار المعتزلة الذين أعطوا مسائل البيان اهتماماً كبيراً، حيث تحدث عن الألفاظ و ملاءمتها للمعاني، و عن الإيجاز و الإطناب، و يشير في كتابه " البيان و التبیین " إلى السجع و الازدواج و الاقتباس و الكناية و الاستعارة و غيرها، كما يشير في كتابه " الحيوان " إلى الحقيقة و المجاز، و ينبغي -أيضاً- أن نأخذ في الحسبان، أن موقف الجاحظ كان من موقع العربي المدافع عن الفصاحة لأسباب لغوية لعلها مشوبة بموقف سياسي، يدافع عن سيادة العرق العربي، أو من المتكلم المناظر المؤمن بأن القول ترتيب ورياضة (41) . و جملة الأمر، كان الجاحظ ينتمي إلى نخلة تعتبر اللغة سلاحها الأساسي للظهور على الخصوم و الإقناع بالمذهب إبان المناظرات و المحادلات (42) .

و حقيقة الموقف، أن نظرة البلاغيين القدماء إلى اللغة كانت من زاوية نجاحها في المجادلة و قدرتها على التأثير في المتلقى و إقناعه، من هنا كان الحجاج البلاغي يعتبر إجراء خطايا إستراتيجية إذا ما رام المتكلم التأثير في السامع و استمالته لأخذ قرار ما، أو اتخاذ موقف معين، أو القيام بعمل ما، لذلك فالصور الأسلوبية و الصور الاستعارية و البيانية من العناصر ذات الأهمية القصوى في عملية المحاجة و الجدال (43).

هكذا، بالبلاغة ينتصر الشاعر لقضيته و يسوغها في النفوس و يتم تمكينها في الذات، "إنما إصابة المعنى و القصد إلى الحجة" (44)، و هذا ما جعل المتكلمون و المعتزلة يعتبرون تعلم البلاغة غاية في حد ذاته، فهي تمكنهم من أداة ناجعة، يظهرون بها على خصومهم في المناظرات و المجادلات (45). و ما يعنينا هو أنهم ركزوا على مقاصد البلاغة العقائدية و وظفوها لغايات جدلية إقناعية، و منه أصبحت اللغة خادما من أجل الوصول إلى نهائي أو موقف حاسم (46). الأمر الذي جعلها تهدف إلى كسب تأييد المتلقي في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثم إقناع ذلك المتلقي عن طريق إشباع مشاعره و فكره معا، حتى يتقبل و يوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطاب، فالبلاغة كما قلنا توجه بخصائصها للقلب و العقل معا، إذ يجمع القول فيها بين المضمون العقلي للشاهد و صورته البيانية، أو بين التبرير العقلي و المحسنات البديعية (47).

و وفقا لذلك ، فإن البلاغة هي الطريقة و الوسائل المتبعة في الكلام حتى تنفذ معانيه إلى عقل و قلب السامع و ما يقتضيه ذلك من وضع محسنات بديعية و إبانة و إظهار و إقناع و يعود هذا التصور إلى كون البلاغة العربية قد نشأت في أحضان الصراع بين العقائد، فقد وصف القرآن الكريم بعض الناس بأن لهم ألسنة حادة، و وصف طائفة أخرى بأن لهم القدرة على الجدل و الخصومة، مما يدل على أن اللغة ظاهرة من مظاهر الصراع و ليس السلام. و يرى البعض أن الأبحاث البلاغية نشأت في عصور قوامها الاضطراب السياسي

و الاجتماعي، و من الطبيعي أن يفقد المنطق العقلي وقاره في هذا النحو. ومن الثابت أن القرآن الكريم دعا كثيرا إلى استعمال العقل ونبد التقليد والمحاكاة، كما ميز بين استعمال العقل من ناحية، و الجدل و الخصومة و حدة اللسان من ناحية أخرى(48).

و الجدل في حقيقة الأمر مرادف لما نسميه تحكم الأفكار المسبقة، و مرادف لتبرير المواقف و البحث عن الغلبة، و كل هذا منبعه المهارة اللغوية و جمال القول (49) و يعتبر هذا عدونا لأنه يحقق متعة العقل الجماعي كما يقال .

من هنا، كانت السمة الغالبة هي الجدل العنيف و ما يمكن أن يولد من آثار، و لهذا تعتبر البلاغة ظاهرة إسلامية، اضطر إليها فريق من المعارضين، أي أصحاب الأحزاب السياسية و الفرق الدينية فيما بعد، و ذلك لما يكتنف بلاغة القول من اضطراب أحيانا، و يجوز لنا القول إن القادر على اللغة من الناحية الجمالية، يستطيع أن ييث الرهبة في النفوس، و هذا واضح عند السحرة و الكهان قديما، و لذلك يحاربهم المفكرون و يثرون عليهم في كل حين (50). كما أن اللغة الجميلة قد تكون إحدى وسائل القهر و الخوف، و يمكن أن تؤدي في حياة المجتمع إلى الشر على نحو ما يمكن أن تؤدي إلى الخير، و باختصار، تعتبر اللغة البلاغية أداة لتوجيه حياة المجتمع.

و مما تجدر الإشارة إليه بعد هذا، هو أن اللغة في الموروث البلاغي، كانت خادمة للمنطق و الإقناع، و ليست خادمة لنفسها، فالتأثر البالغ بالمنطق الأرسطي أدى بالبلاغة القديمة إلى العجز عن احتضان إمكانيات التعبير اللغوي التي تتجاوز البنية السطحية، و توغل في شبكات الأبنية التحتية للتركيب ، و يعود هذا العجز إلى اعتماد البلاغة على ربط اللغة بالواقع و حصر وظيفتها في الإشارة إليه، و هذا ما أدى إلى الاعتناء بالحالة العقلية للمخاطب أكثر من حالته الوجدانية و نزوعها إلى الوضوح. بما هو مفهوم عقلي صرف (51).

ومن آثار المنطق الأرسطي على البلاغة العربية ولع البلاغيين بالتقسيمات والتفريعات الجامعة المانعة بما فيها من حدود و رسوم، مما كان له أبلغ الأثر في حقائق البلاغة

و فقدان رونقها الحيوي (52). و بتعبير مصطفى ناصف، كانت البلاغة القديمة تقوم على تعقل الأشياء أكثر من قيامها على وجدانها، أي أنها كانت تهتم بالعقل (53).

و بطبيعة الحال، فإن تسلط العقل ينجر عنه حتما تراجع الخيال، و انخسار قدراته والتحديد من فعاليته في التجربة الشعرية، يظهر ذلك جليا في تمسك النقاد بالوضوح و عدم الإبعاد (54). من هذا المنظور، يسهل تمييز حقائق الأشياء من مواقف الإنسان عند البلاغيين القدماء، فمواقف الإنسان لا تلبس بأي حال بحقائق الأشياء (55).

و خلاصة الأمر، أن المنهج البلاغي القديم، كان منهجا خطايا نظريا، شديد الاهتمام بالقسمة و التعريف، يستكثر من الشواهد و الأمثلة، و لم تكن البلاغة مميزة من الثقافة الفلسفية أو العقلية (56). فالبلاغة القديمة تزعم أن الذهن الإنساني يتعامل مع الخاص منذ البدء و ينتقل منه إلى العام (57). لهذا يعاب على البلاغة التقليدية، أن أفقها لم يتجاوز الوحدات الجزئية، أو أنها تميز بين الجزئي و الكلي بمقتضى المنطق و الإقناع، في حين أن البلاغة الحديثة ليست لها حاجة دائمة إلى حدة هذا التمييز (58). و يقودنا هذا إلى القول بأن المنهج العلمي حاد، ذو طريقة واحدة، إما أن تثبت الأشياء، و إما أن تنفيها (59).

و المهم، أن هذا النحو من بسط الكلام و تجزئته في الشرح و التفسير و التعليل كان من خصال البلاغيين القدماء، قبل أن تصبح البلاغة تعليمية لا هم لها إلا استنباط القواعد والبحث عن الشواهد التي يجلبها (60).

و الذي نود ملاحظته ضمن هذا السياق، أنه إذا كان من الطبيعي أن تنشأ قوانين عامة مرتكرة على السببية في العلوم الطبيعية، فليس لنا أن نطلب مثل هذه القوانين في العلوم الإنسانية، إن المجال الإنساني مجال وقائع مفردة، في هذا المجال تهتم بأشياء عينية أو فردية، وليس لهذه الأشياء وجود في العلم الدقيق (61).

انطلاقا من هذا، بات واضحا أننا في مسائل البلاغة نفضل أن يكون الذوق الفني فيصلا في الأمر، أما هذه التقنيات و التعقيدات فلا تقدم كثيرا أو قليلا، لأنها قائمة على تنظيم خطأ، و هو أن استعمال اللغة تظل في وضع استاتيكي، و أن تطور الدلالات في حركة

مستمرة..و بديهي أن العرف اللغوي قابل للتغير و لا يستقر على حال، و اللغة تحدد نفسها بنفسها. لكن الملاحظ أن البلاغة القديمة كانت شديدة الاهتمام بفكرة الخطأ، و كان الباحثون يصرخون أن من الواجب التماس الوسائل التي يحتز بها من الوقوع في برائن الخطأ و التعقيد و الغموض و الالتباس، و كان الصواب في رأيهم نمطا خاصا محفوف بالصعاب (62).

و على هذا، كان من أهم أسس البلاغة القديمة مراعاة الوضوح و الإبانة و النظر إلى وظيفة النص من زاوية المنفعة و النجاعة، فابن سنان الخفاجي يقول: " إن من شروط الفصاحة و البلاغة أن يكون معنى الكلام واضحا ظاهرا جليا، لا يحتاج إلى فكرة في استخراجها و تأمل لفهمه، و سواء أكان ذلك الكلام الذي لا يحتاج إلى فكر منظوما أو منثورا " (63) و يقول ابن الأثير: " البلاغة كشف ما غمض من الحق، و تصوير الحق في صورة الباطل " (64) من هذا يتبين أن الموروث البلاغي، يرى أن اللغة إطارا خارجيا و ليست مكونا داخليا، و كان هذا الإطار محكوما عليه في الغالب في نطاق الوضوح و التمايز الاصطناعي(65).

و ما نلاحظه هو أن البلاغيين القدماء لم يتكلموا عن اللغة في صميمها ، بل تكلموا عنها في أعراضها و لوازمها و آثارها البادية المدركة ، فهي زخرف و زينة تضاف إلى القول لتحسينه، و هذا أمر يتعلق بالسطح دون الجوهر و اللباب، و على ذلك فإن صورة ما ، يمكن أن تكون جميلة دون أن يكون الجمال هو الغرض المقصود من جانب مبدعها، إذ يمكن أن تكون لها وظيفة تعليمية أو هزلية أو ساحرة أو غيرها.

و الذي يستوقف النظر في هذا الصدد، هو أن احتلال الإبانة قطب الرحي في الموروث البلاغي، وسم نظرة العرب إلى الفن بطابع عقلي، تبوأ بموجبه وظيفة الفهم والإفهام صدارة الوظائف اللغوية، و ارتبط حصول التأثير في المتلقي بالإدراك، و من ثم كان الفهم الشرط الواجب لحصول اللذة (66) .

و الذي يراه البعض هو أن مطلب الوضوح يعتبر تبسيطا للعمل الفني، فهو دعوة إلى نوع من التسطيح الفكري، يقلل من قيمة العمل الأدبي، لهذا فإن غموض الصورة يحقق تأثيرها الجمالي لما تستوجه من جهد في طلب معناها، و بالتالي فالغموض خاصية جمالية تستحضر المتلقي بإشراكه في العملية الإبداعية. إضافة إلى أن الشعر يجتنب المباشرة و الرؤية السطحية " فالشاعر يحاول أن يستكنه ما تحت النفوس، و ما فيها من مشاعر تحتاج إلى الإستبطان "(67).

لقد دفع هذا التصور البلاغيين القدماء إلى مراعاة بناء الألفاظ و تكوين الأفكار، أخذافى الحسبان أمور الاختلاف في الدلالة على معنى من المعاني، و بإيجاز، إن ثقافة الإنسان في البلاغة القديمة يضبطها فكرة المعنى الواحد(68) و ذلك من منطلق أنها تخدم هدفا محددا، أو حدثا معينا. و تبعا له، فإن الأفكار الخارجية تطفو على سطح القصيدة أو ترى هذه الأفكار متميزة ثابتة في كل مكان، أو ترى القصيدة تعكس عاطفة شخصية من رغب أورهب(69) و بعبارة أوضح كان نظام اللغة هو نظام الإشارة إلى شيء سابق و مقرر من قبل أن توجد اللغة و كانت لغة البلاغة تحسينا لهذه الإشارة، و قد سمي هذا التحسين باسم التوضيح فلغة البلاغة بطرقها قد توضح أشياء محملة أو قد تبحث عن نوع من الاحتجاج لأمر من الأمور. في ضوء هذا التصور، أهمل البلاغيون حال القائل نفسه، و ما يكون في فنه النثري و الشعري من دلالات تعبر عن موقفه هو تجاه الأشياء، و لعل ذلك راجع إلى الجو الأرستقراطي الذي كان يتعامل فيه الأديب مع السادة و الأمراء و الخلفاء و الطبقة المرفهة من المجتمع و مراعاة أحوالها و ما يليق في مخاطبتها (70).

و على العموم، كانت البلاغة القديمة، ترى أن موضوع القصيدة موضوع خارجي، يتصل بالأخلاق و الاعتقادات و السياسة، فالقصيدة تستمد كيانها من الثقافات المجاورة، و لذلك تصبح اللغة أداة في يد هذه الثقافة تحملها أو تجعلها ذات بريق (71).

وبسبب هذا، كان مفهوم التوافق و التحسين اعترافا بما هو خارجي قائم بذاته، على الفرد أن يسعى إليه، في حين أن البلاغة الحديثة، ترى أن الحياة الداخلية للنفس تستوعب كل

شيء في إطار الإبداع الحز (72). في هذا الإطار الذي سيطر فيه مبدأ التحسين للأشياء المعلومة، يرى ابن الأثير، أن اللفظ خادم للمعنى، و أن العرب تحسن ألفاظها و تنمقها لعنايتها بالمعنى فيقول : " اعلم أن العرب كما كانت تعتني بالألفاظ فتصلحها و تهذبها، فإن المعاني أقوى عندها ، و أكرم عليها، و أشرف قدرا في نفوسها، فأول عنايتها بالألفاظ، لأنها لما كانت عنوان معانيها وطريقا إلى إظهار أغراضها أصلحها و زينها..... ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعا لذ لصاحبه، و إذا لم يكن مسجوعا لم يأنس به أنسه في حالة السجع فالألفاظ إذا خدتم للمعاني، و المخدم لاشك أشرف من الخادم" (73). و شيء كذا ، هو ما يراه ابن طباطبا حين يقول: " و الشعراء في عصرنا إنما يثابون على ما يستحسن من لطيف ما يوردونه من أشعارهم، و بديع ما يغيرونه من معانيهم، و بليغ ما ينظمون من ألفاظهم، و مضحك ما يوردونه من نواذرهم، و أنيق ما ينسجونه من وشي قولهم دون حقائق ما يشتمل عليه من المدح و الهجاء و سائر الفنون" (74)

و ما يهمننا في هذا النص ، هو أن لابن طباطبا طعنا في معنى البلاغة و أصحاب البديع، و اتهاما لهم بالزيف، و اتهام البديع بأنه شكل باهر لا يقصد فيه الشاعر دائما إلى الصدق النفسي، و من المؤكد أن أشكال البديع كما استقرت في الموروث البلاغي قد استأثرت باهتمام مبالغ فيه لدى المتأخرين إبداعا و تصنيفا و كان ذلك مرتبطا بتضخم العناية بالزخرف اللفظي المماثل عن طريق التوافق و التضاد في المستويين الصوتي و الدلالي بطريقة شديدة التكلف و الافتعال (75) .

و لقد تنبه عبد القاهر الجرجاني إلى الأثر النفسي الذي يحدثه الحرص على أناقة الأسلوب و أثر دلالاته فقال : " ثم تبرجها في صورة هي أبهى و أزين و آنق و أعجب و أحق بأن تستولي على هذه النفوس، و تنال الحظ الأوفر من ميل القلوب، و أولى بأن تطلق لسان المحامد" (76) . و غير خفي ، أن العناية باللفظ و ما تقتضيه من زخرف قد تضيق معه الفكرة، أو يضطرب دونه الذهن المدرك و من اعتراضات العقاد على طريقة النظر البلاغية عند القدماء، أنه يرى أن مدار الشعر ليس هو تحسين الأشياء الخارجية المتميزة و إنما مدار الشعر

هو نمو الوجدان أو الشعور الحي. و مغزى هذا أن الشعر يحول ما هو خارجي إلى حياة باطنية (77).

و بوسعنا أن نقول، إن اللغة في البلاغة القديمة تحسين، و هي في البلاغة الحديثة تكوين، وبطبيعة الحال فإن التوكيد بالدرجة الأولى على القيمة الزخرفية للاستعارة في تزين مفهوم سابق الوجود، يجعل المعرفة صعبة المنال، لأننا لا نستطيع أن نعلو على التمجيد والتحقيق (78).

في ظل هذا يتضح تماما، أن روح الإبداع لم تكن متميزة عند البلاغيين القدماء عن التوافق و التحسين أو ما يسمى بعلم البديع الذي كان يلتبس عندهم و يتداخل مع مصطلح البلاغة، و ذلك عندما كان البديع جامعا لضروب البيان و البديع معا في مفهومه، حيث كان يعتبر الصورة المشرقة أو المعرض الجمالي الذي تتجلى فيه البلاغة برونقها، و لذلك ضمنوه كل علوم البلاغة من معان و بديع و بيان (79). هكذا دأبت البلاغة القديمة على الإشادة بالتزين و سحر الكلمات، لكن سحر الكلمات كان مميزا في نظر كثيرين من الحكماء و التعقل الرصين و التمييز الأساسي الذي ينبغي الاستباح (80) .

كما عاشت البلاغة القديمة على أن الكلمات لها استعمالات مقررة، و من أجل ذلك يسهل تخطيط الشعراء الذين يقدرون حرية الكلمة تقديرا أوسع (81)، على اعتبار أن الكلمة أو الجملة ليس لها معنى حقيقي محدد بكيفية نهائية، و إنما السياق هو الذي ينتجه، لذا ينبغي التفرقة بين المعنى المعجمي و المعنى السياقي، و بين المعنى المستفاد من اللفظ في وضع اللغة و بين المعنى المستدل عليه بمعنى اللفظ. ويعنينا بعد هذا ما نحن بصدد، و هو أن البلاغة القديمة تتصور أن اللغة وحدات مضمومة إلى بعضها بعض، و هذا لا يضيف أحيانا جديدا حقيقيا، فالوحدات المضمومة راکدة، ولا كذلك وحدات تتفاعل فيما بينها تفاعلا قويا (82). على هذا النهج، كان مقررا في الموروث البلاغي أن لكل كلمة معنى جعلت له، و بمعنى آخر، لدينا ما نقوله و أنه جاهز و لو في مرحلة إعدادية غير ناصعة، أما في البلاغة الحديثة،

فهي أن للكلمة قدرة على خلق معان جديدة، و هذا هو صلب عملية التوليد البلاغي، لأن فكرة المعنى الثابت لا تصدق إلا في بعض فروع العلم (83).

إن ما يمكن قوله هنا، هو أن اللفظة تكتسب وجودها الفني من خلال السياق و من لون العاطفة التي تستدعي نوعية خاصة من الألفاظ، فليست كثرة الحروف أو قلتها مما يقلل من قيمتها أو يكثر فيها، لأن هذه القيمة إنما تكتسب من الموقف و من السياق الذي تستعمل فيه (84). و ما يعاب على الموروث البلاغي، هو أن الحقيقة تبدو فيه عارية من آثار الخيال، وتبدو العواطف الإنسانية ثانوية مهما انتشرت (85)

بالمقابل تلح البلاغة الجديدة على أن قيمة الكلمة تستمد من الموقف و السياق والبيئة اللغوية التي تعايش فيها الألفاظ. فنظرية اللغة عند سوسير تتصور اللغة على أنها نسق من العلامات غير السببية، كل شيء فيه علاقة و تخالف، وعنده أن معاني الكلمات تتوقف على مواقعها في الجمل و اختلافها من غيرها، و هذا معناه طرح فكرة أرسطو القائلة بأن لكل كلمة معنى جعلت له، بل أن للكلمة قدرة على خلق معان جديدة، و هذا ما يعنيه مصطفى ناصف بقوله : "اللغة خلاقية المعنى" (86).

وما نشير إليه الآن، هو أن التصور اللغوي عند البلاغيين القدماء، يفصل بين المعنى والمبنى، و هذا ما أدى إلى إنزال المباني منزلة الوسائل الخادمة للمعاني و المساعدة على إجلائها و تقديمها في أحسن صورة من اللفظ"، فالاحتفال و الصنعة في التصويرات التي تروق السامعين و تروعهم، و التخيلات التي تهز الممدوحين و تحركهم و تفعل فعلا شبيها بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط و النقش، حيث تروق و تؤنق و تدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن من قبل رؤيتها، ويغشاها ضرب من الفتنة لا يذكر مكانه (87). بهذا التصوير الذي يسير أحوال المتلقي، و يشرح التأثير الذي يحدث في النفوس، هذا التأثير الذي يجده المتلقي إزاء بعض التراكيب، و لا يجده في تراكيب أخرى، تفتقر إلى لطائف البلاغة، فتصير النفس إلى حالة عادية "انظر كيف يكون الحال؟ و كيف يذهب الحسن والحلاوة؟ و كيف تعدم أريحتك التي كانت؟ و كيف تذهب النشوة

التي كنت تجدها ؟ " (88). على هذا النحو، كان المتلقي يسرع إلى قبول الفكرة التي تقبل إلى عقله في ثوب البلاغة و البيان الأنيق منه، إلى قبول الفكرة التي ترد إلى ذهنه عارية إلا عن الحقيقة والجوهر، وخاصة الجمهور الذي هو قوم من عامة الناس، فسرعان ما تؤثر فيهم الكلمة المنتقاة والأصوات الرنانة. و لهذا فالفرد العادي لا يعرف كيف تصنع اللغة و تنمي عقله، وكيف تعتدي عليه و هو آمن فيما يخيل إليه.

وبطبيعة الحال، فإن البلاغة لا تؤثر في السامع إن لم تداعب و تناجي وتجاوز مشاعره و أحاسيسه و آماله و طموحاته، أي إن لم تنسجم و شخصيته، و لكي تقنع إنسانا يجب أن تلجأ إلى إثارة مصلحته الشخصية، إلى رغباته و إرادته، فالملاحظ أن عقل أغني إنسان يتحول إلى ذكاء مرهف عندما تكون المسألة المطروحة للبحث متمشية مع رغباته وميوله و أهوائه . في ضوء هذه الاعتبارات، كان حديث أفلاطون في بعض محاوراته عن الخطابة (مطابقة الكلام لمقتضى الحال)، و هي الفكرة التي دارت في كتب البلاغة القديمة، والتي يغلب الظن أنهم نقلوها عنه، فكلام الخطيب ينبغي أن يكون ملائما لسامعه، و تفسير ذلك أنه لا بد أن يعرف المتكلم الأحوال النفسية لسامعه حتى يجعل خطبته مؤثرة فيه، و كأنه يوجب على المتكلم المعرفة الدقيقة بعلم النفس، فلا من مناص له من معرفة طبائع من يستمعون إليه حتى يطابق بينهم و بين كلامه.

وتبعاً لهذا، كان مفهوم المقام محورياً تدور حوله الدراسات البلاغية، فقد اعترف بحق كل إنسان في أن يعامل معاملة تليق به " فقد قامت المواضع الاجتماعية، و هي مظهر من مظاهر المقام بدور كبير في تنبيه اللغويين عامة و البلاغيين بوجه خاص إلى ظاهرة الإيحاء في اللغة " (89).

فالسكاكي يقول : " فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، و مقام التهنتة يباين مقام التعزية، و مقام المدح يباين مقام الذم، و مقام الترغيب يباين مقام الترهيب، و مقام الجد يباين مقام الهزل، و كذلك مقام الكلام ابتداء يباين مقام الكلام بناء على الاستخبار، و لكل ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر " (90).

و يستفاد من النص، أن الكلام يتزل في مقامات، لذا وجبت مراعاة منزلة السامع ومستلزمات المقام، و قد حدد الجاحظ ملامح المتلقى من وجهة لغوية لعلها تكشف عن منزلته الاجتماعية و انتمائه الطبقي فقال : " و كلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات " (91).

و ما يهمنا، هو أن المقام أو الموضوع أو الحال، يعني مراعاة جملة الظروف الحافة بالنص، بما في ذلك السامع، فلا بد من التلاؤم بين نوع الحديث و ملابساته، و نوع اللفظ، و مؤدى ذلك كله، أن المقام يعني خصوصيات و مقتضيات تؤدي إلى التأثير و الإقناع. و ترتب عن هذه التصورات اعتبار المقام هو الأرجح في الدراسات الرسمية.

من خلال هذا ، يرى مصطفى ناصف أن مفهوم المقام التقليدي ، لا يستجيب لطموح قلة تريد أن تغير المجتمع كله احتياجاته، و لذا يعتبر المقام قيدا أو عائقا لحرية التعبير (92). و الذي نشير إليه في الختام، هو أن منطق اللغة اليوم يتميز من المنطق القديم. وبتعبير آخر، البلاغة القديمة مختلفة من الناحية النظرية و العملية عن البلاغة الجديدة فاللغة في البلاغة القديمة تحسن و اللغة في البلاغة الحديثة تكوين، و البلاغة الحديثة تهتم باللغة لذاتها، وليس ثم فرق - هنا - بين العناية باللغة، و العناية بروح الإنسان. هذه متميزة من المنطق وخدمة الهدف المحدد، كل شيء على الإنسان أن يدخله في حوزته (93).

إن البلاغة اليوم تلمس الآفاق البعيدة في سياق الكلام، و يؤمن البلاغيون و النقاد الآن، بأن البلاغة وجه من وجوه الجمال في الكلام، لذا ينبغي أن نمد البصر إلى ما وراءها من مصادر الجمال التي نلتمسها في السياق و في الروح أو مصدر الحيوية الذي يأتي من الأدب ليشع الجمال و التماسك بين صور البلاغة (94).

و من أهداف البلاغة اليوم، التربية الفنية و تربية البحث عن السرور المتميز من الغايات العملية و المنفعة، و يعد هذا ثورة على البلاغة القديمة .

أضف إلى ذلك، أن في البلاغة القديمة يتم الاحتفال بالظروف، أما في البلاغة الحديثة، فالاهتمام يتجه إلى اللغة ذاتها، و بعبارة مختصرة، إن اللغة في التصوير البلاغي الجديد،

و خاصة بلاغة الشعر تخدم نفسها، لا تخدم المنطق و الاقناع و التأثير، فالشاعر يخلق عاطفة من خلال اللغة، عاطفة لا ترتبط ارتباطا مباشرا بتاريخه أو حياته، فالعاطفة عاطفة لغوية والفكرة كذلك (95).

و يحمل القول ، إن اللغة في البلاغة الحديثة " خلاقية المعنى " (96) تخلق شيئا يتأمل من خلالها، و تولد معاني لم يكن لها شبيه تام من قبل في المصادر الخارجية و العاطفة الشخصية. إضافة إلى أنها تهتم بالاتصال أكثر من اهتمامها بجانب الاقناع أو التأثير أو الامتناع. بل تعمل على التطابق بين الفكر و اللغة .

المراجع

1. ابن سلام الجمحي. طبقات الشعراء، تحقيق و شرح محمود شاكر. القاهرة 1952 . ص 22.
2. فلسفة البلاغة - لرجاء عيد - ص 24.
3. النقد و الدراسة الأدبية - حليمي مرزوق. دار النهضة. بيروت. ص 77 .
4. اللغة بين البلاغة و الأسلوبية - مصطفى ناصف النادي الأدبي الثقافي بجدة - السعودية. 1989. ص 25
5. اللغة و البلاغة و الميلاد الجديد - مصطفى ناصف . ص 107.
6. فلسفة البلاغة - لرجاء عيد - ص 24.
7. اللغة بين البلاغة و الأسلوبية - مصطفى ناصف - ص 51 .
8. المرجع نفسه ص 189 .
9. اللغة و التفسير و التواصل - مصطفى ناصف - ص 11.
10. المرجع نفسه ص 16.
11. المرجع نفسه ص 12 ، 13 .
12. مجلة عالم الفكر ، مجلد 30 ، سبتمبر 2001 ، ص 110 .
13. البلاغة و الأسلوبية ، يوسف أبو العدوس. ط 1 / 1999 . ص 179 .
14. اللغة و البلاغة و الميلاد الجديد - مصطفى ناصف . ص 148
15. المرجع نفسه ص 149.
16. فلسفة البلاغة - رجاء عيد - ص 67.
17. اللغة و البلاغة و الميلاد الجديد ص 148.

18. البيان و التبیین - الجاحظ - ج1/ص113.
19. اللغة بين البلاغة و الأسلوبية - مصطفى ناصف - ص 61.
20. المرجع نفسه ص 67.
21. سورة البقرة، الآية 203.
22. المنافقون، الآية 03.
23. اللغة و التفسير و التواصل - مصطفى ناصف - ص 21.
24. المرجع نفسه ص 22.
25. المرجع نفسه ص 137.
26. اللغة بين البلاغة و الأسلوبية ص 24.
27. اللغة و التفسير و التواصل ص 146.
28. المقدمة لابن خلدون - طبعة دار الكتاب اللبناني ص 1098.
29. البيان و التبیین- الجاحظ- تحقيق و شرح عبد السلام هارون- دار الفكر- بيروت ص171
30. التفكير البلاغي عند العرب ص 115.
31. اللغة بين البلاغة و الأسلوبية ص 190.
32. البيان و التبیین ج1/ص03.
33. المرجع نفسه ص 103.
34. Our, owm language, potter, p 23
35. اللغة و التفسير و التواصل ص16.
36. التفكير البلاغي عند العرب.أسسه و تطوره-حمادي صمود- منشورات الجامعة التونسية ص47.
37. المدخل إلى دراسة البلاغة العربية -أحمد خليل - ص 09.
38. اللغة و البلاغة و الميلاد الجديد ص 151.
39. التفكير البلاغي عند العرب ص 299-300.
40. المرجع نفسه ص 301.
41. انظر، فلسفة البلاغة لرجاء عيد ص 25، و التفكير البلاغي عند العرب ص 301
42. و اللغة والتفسير و التواصل ص 46.
43. التفكير البلاغي عند العرب ص 154.
44. مجلة عالم الفكر - م 30 - سبتمبر 2001 . أ - .حبيب أغراب ص 31.

45. العمدة ، ابن رشيق - ج1/ ص 245.
46. اللغة والتفسير و التواصل ص136.
47. مجلة عالم - م 30- سبتمبر 2001 ص30.
48. اللغة و البلاغة و الميلاد الجديد ص 35.
49. المرجع نفسه ص 41.
50. المرجع نفسه ص 52.
51. البلاغة و الأسلوبية، يوسف أبو العدوس ص 181.
52. المرجع نفسه ص182.
53. اللغة و البلاغة و الميلاد الجديد ص 150.
54. التفكير البلاغي عند العرب ص 594.
55. اللغة و التفسير و التواصل ص 140.
56. اللغة و البلاغة و الميلاد الجديد ص 151.
57. اللغة و التفسير و التواصل ص145.
58. انظر بلاغة الخطاب و علم النص ص 133- و اللغة و التفسير و التواصل ص 137.
59. اللغة و التفسير و التواصل ص129.
60. النقد و الدراسة الأدبية - حلومي مرزوق - ص99.
61. اللغة و التفسير و التواصل ص122.
62. اللغة و البلاغة و الميلاد الجديد ص 152.
63. سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي ص 121.
64. الصناعتين - أبو هلال العسكري / دار المغرب العربي ص 119.
65. اللغة و التفسير و التواصل ص 136.
66. التفكير البلاغي عند العرب ص594.
67. فلسفة البلاغة - رجاء عيد - ص 45.
68. اللغة و التفسير و التواصل ص151.
69. المرجع نفسه ص 135.
70. فلسفة البلاغة - رجاء عيد - ص95.
71. اللغة و التفسير و التواصل ص.135
72. اللغة و البلاغة و الميلاد الجديد ص149.